

ماهية الذات الإلهية

سؤال: يقولون: ما ماهية الذات الإلهية ﷻ؟

الجواب: إن الله سبحانه ليس كمثله شيء؛ والحقيقة أن مخلوقاً يعيش في عالم محدود كهذا لا شك أن فكره ونظره وحدسه محدود أيضاً.

نسبة ما يبصره الإنسان في هذا العالم ١,٠٠٠,٠٠٠/٥ تقريباً، وكذلك نسبة ما يسمعه، فمثلاً: لا يستطيع أن يسمع صوتاً اهتزاز ٤٠ تردداً في الثانية، ولا صوتاً بلغ تردده الآلاف، فحاسة السمع عند الإنسان محدودة، لا تسمع إلا نسبة ضئيلة في المليون، ومجال علمه واطلاعه محدود جداً أيضاً، فكيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرأ ويسأل: لماذا لا يرى الله؟ وما هي حقيقته؟ كفى بطرح مثل هذا السؤال جرأةً وتجاوزاً للحدّ، وكذا محاولة إسناد الكمية والكيفية لله تعالى -حاشاه- ومحاولة التفكير في ذاته.

فمن أنت أيها الإنسان وماذا تعلم حتى تتكلف إدراك ذات الله تعالى؟ إنّ الله تعالى منزّه عن الكيف والكم، وهو أجلّ من أن تحيط به مقاييسك القاصرة، فإنّ جُبتْ عوالم أخرى في تريليون سنة ضوئية ثم أحطتْ بتلك العوالم لم يكن ما شاهدته شيئاً أمام سعة وجود الله.

وعندما نعجز علمياً ولو عن معرفة قارة "أنتاركتيكا"، فكيف يمكن أن نحيط علماً بذات الله ﷻ خالق الكون ومدبره؟ حاشا لله، فالله تعالى مقدس ومنزه عن الكيف والكم لأنه هو الله، لا تدركه التصورات والتخيلات وهو اللطيف الخبير.

يقول علماء الكلام: "كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك"؛ أما المتصوفة فيقولون: "كل ما خطر ببالك فهو وراء وراء وراء ذلك، كيف والحُجُب تحيط بك كأنك في فانوس".

يقول ديكارت: "الإنسان محدود من جميع جوانبه، والمحدود لا يستطيع التفكير في المطلق"، فوجود الله تعالى مطلق غير محدود، فلا يستطيع الإنسان القاصر المحدود أن يحيط به، ويحدثنا الأديب الألماني "جوته" عن هذه الحقيقة فيقول: "يذكرونك بألف اسم واسم، أيها الظاهر الباطن! ولو ذكرتك بألف الأسماء لا بألف اسم فحسب لما ذكرتك حق ذكرك، فأنت أعلى من أن يَصِفَكَ الوصفون".

يرى المفكرون أن الله موجود ولكن وجوده لا يدرك، فيستحيل على الأذهان أن تحيط به، فالعين لا تستطيع رؤيته والأذن لا تستطيع سماعه، فالزم غرر الأنبياء في إيمانك به سبحانه.

كيف يمكننا أن ندرك الله تعالى وهو خالق الوجود وأصل العلم، فوجودنا ومضة من نور وجوده، وعلمنا نفحة من علمه الإلهي المحيط بكل شيء؛ أجل، هناك طريق لمعرفة الله تعالى وبلوغ مرتبة العرفان، إلا أن له حدًا ينتهي إليه، ولكن هذا الطريق مغاير للطريق المعتاد في معرفة الأشياء، فمن يحاول معرفة الله بسلوك طريق غير طريق معرفته سبحانه هم البؤساء ممن لم يستطيعوا التغلب على غرور أنفسهم، وجعلوا معنى المشاهدة القلبية، ولم يتذوقوها؛ فتراهم يقولون: "بحثت عن الله فلم أجده"، وهذا ضلال كبير وقول زائف باسم العلم والفلسفة.

الله تعالى هو الإله الذي يُربنا وجوده بل وجوب وجوده في الآفاق وفي أنفسنا أثناء معراج الروح والقلب إليه، ويشعرنا بنفسه في أعماق قلوبنا وأرواحنا؛ وهذا الحدس الوجداني هو أساس جميع علومنا،

وهو أقوى من جميع علومنا القاصرة ومن عقولنا وأفكارنا، ومع هذا فكثيراً ما نذهل عن وجودنا وعن هذا الحدس الوجداني، فنضل ونشقى. الكونُ ألفُ لسان ولسان يذكرنا بهذا، والقرآن يفعل ذلك بأبلغ بيان، وكفى برسولنا ﷺ مبلغاً لهذه الحقيقة العالية.

روي في الأثر: "مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي؛ وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ"^(١).

(١) السخاوي: المقاصد الحسنة، ص. ٥٨٩.

معرفة الله

سؤال: هل يمكن معرفة ذات الله وتعريفها؟

الجواب: لا نستطيع معرفة شيء عن الله إلا ما بلغنا عنه، ولا يمكن للعقل أن يدلي بشيء في هذا، فدوره الاستجابة لإرشاد الوحي في هذا، وهاكم مثلاً يوضح هذا الأمر:

لنفرض أننا جالسون في بيت، وسمعنا الباب يطرق... أجل! الباب يُطرق فعلاً، فتجاوز بعضنا مدلول طرق الباب، وأدلى كل برأي مختلف حول هوية من يطرقه؛ وتفكيرنا هذا يسمّى "التصور"، ورأى آخرون أنه لا مجال للتصور هنا، وأن على العقل التصديق بأن هناك شخصاً ما وراء الباب، ويترك للشخص القادم أن يعرف نفسه، وهذا يُسمّى "التعقل".

وبتطبيق هذا المثال على موضوعنا نقول:

إننا نحاول معرفة الله تعالى بالانتقال من آثاره إلى أسمائه، ومن أسمائه إلى صفاته، ومن صفاته إلى تجليات ذاته؛ أي نتقل من تجلياته في آثاره إلى تجلياته في أسمائه سائحين في الكون للوصول إلى تجلياته في صفاته، ونتحول من الغيب إلى الشهود؛ وكلما ازدادت أشواق مشاهدتنا تقلبنا في حالات السكر والذهول والغياب عن الوعي، فأحياناً ننبسط بأنسام الجمال والحنان، وأحياناً نرتجف خوفاً ومهابة.

إننا لا نستطيع قول أي شيء في الذات الإلهية بمقاييس معارفنا ومعلوماتنا، فعلينا أن نحيل معرفته تعالى إلى الوجدان؛ فللووجدان لسان خاص ولهجة خاصة به، وهو نقطة التّقاء عالم الغيب بعالم الشهادة.

أجل، الله تعالى معلوم بأسمائه، وأسمائه تدل على صفاته، وله ذات مقدسة لا نعرف كنهها، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "العجز عن درك الإدراك إدراك"، وهو ﷺ معروف ومعلوم لكن في إطار ما يُعزى إلى النبي ﷺ أكبر معرفٍ وأعظم دليل على الله: "سبحانك ما عرفناك حق معرفتك" ^(٢).

وبتعريف القرآن الكريم لأفعال الله ﷻ يتبين أنه المعبود المطلق الموصوف بصفات الكمال، وأنه يمكن لقلوبنا أن ترتقي لمعرفة، لنرى كمال جماله ﷻ.

إذاً نستطيع أن نجدد عهدنا ونقول:

"أيها المعبود المطلق، لا نستطيع معرفتك حق المعرفة، إننا نعلم أنك أقرب إلينا من جبل الوريد وندرك مدى عظمتك وقدرتك على طي السموات جميعاً كطي السجل للكتب، وتلمس النظام الرائع والتناغم البديع الذي وضعته بين عين البعوضة والمجموعة الشمسية، فذلك كله طريقٌ نورانيٌّ لأرواحنا، لقد تعرفنا عليك بآثارك في مئات الآلاف من خلقك، فتوَحَّدنا بتجلياتك، وظفرنا بالطمأنينة".

والله أعلم بالصواب.

وحدة الوجود

سؤال: ما هي "وحدة الوجود" وهل توافق عقيدة أهل السنة؟

الجواب: الحديث في وحدة الوجود من شأن المتصوفة غالباً، وهي مسألة "حال" أو "ذوق" عند أهل التحقيق، لكن جاء مَنْ ألبسها لباساً فلسفياً وفهمها على غير ما هي عليه، وجاء من لم يفرق بينها وبين "وحدة الموجود (الوحدوية/Monism)".

ولهذه المسألة شأن مهم في تاريخ الفكر الإسلامي، وما زال الخلاف فيها بين الإفراط والتفريط، إنها مسألة متعلقة بالذات الإلهية مباشرة، وأثارت جدلاً واختلافاً كبيراً، وهذا إما بسبب القصور في التعبير، أو بسبب تطبيقها على عالم الشهادة، أو لمشابتها لفكرة "بانتئيزم (Pantheism)" التي تصطبغ بالهوية الفلسفية.

وللتوحيد ثلاث مراتب عند أصحاب مدرسة وحدة الوجود:

١- توحيد الأفعال (إسناد كل فعل في الكون إلى الله ﷻ): الأفعال كلها أيّاً كان سببها هي أفعال الله مباشرة، ولا داعي لتحري أي سبب آخر وراءها. ولا داعي للحديث هنا عن مسألة "الخلق والكسب" التي هي من مسائل علم الكلام، والتي ورد ذكرها عند الإجابة عن أسئلة القدر.

ويُستدل على هذا بقول الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الصافات: ٩٦/٣٧)، وقوله عزّ من قائل: ﴿قُلْ كُلٌّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (سورة النساء: ٧٨/٤) ونحوهما من الآيات القرآنية.

٢- توحيد الصفات: الاعتقاد بأن القدرة كلها قدرة الله، والعلم كله هو علم الله، والإرادة جميعها إرادة الله، والقوى بمختلف أنواعها مصدرها قوة الله جلّ جلاله.

٣- توحيد الذات: ليس هناك إلا وجود واحد، وهو وجود الله، وما سواه مما نشاهد ليس سوى ظهور وتجليات منه على مختلف المراتب.

وكل هذه المراتب قابلة للمناقشة حتى الفروق الطفيفة بين كلمتي "الظهور" و"التجلي"، ولكن موضوعنا هنا توحيد الذات، فسنقتصر عليه. وإذا ما انحصر هذا المفهوم في "الذوق" و"الحال" فلا مجال لنقده أو الاعتراض عليه.

إن إسناد الأشياء والحوادث إلى الله وأسمائه واجب عقلاً ونقيضه محال كما يعرفه أهله، وهذا قريب من مفهوم التوحيد عند أصحاب هذه المدرسة، ووجهة نظر الصوفية مثله.

ويقسّم الإمام سعد الدين التفتازاني في كتابه "شرح المقاصد" القائلين بوحدة الوجود قسمين، ويعد أحدهما من أهل السنة، وأمر هؤلاء لم يكن محل نزاع قط كما ذكرنا.

نعم، إنه يُقسّم القائلين بوحدة الوجود إلى زمرتين: الصوفية والمتصوفة؛ أما الصوفية فيعترفون بالكثرة في "الوجود" كما يعترفون بها في "الموجود"^(٣)، لكن طالب الحقيقة عندما يصل إلى الله يجد نفسه مستغرقاً في بحر المعرفة، ويشهد فناء ذاته أمام ذات الله، وصفاته أمام صفات الله، ويتلاشى في نظره كل ما سوى الله؛ وعندئذ يحدّ السالك وجوده ملتقى تجليات الحق، وهذا ما يسمّيه الصوفية "الفناء في التوحيد"؛

(٣) إن "وحدة الوجود" تختلف عن "وحدة الموجود" اصطلاحاً؛ أي إنهما مصطلحان مختلفان، وكذلك الحال في "الكثرة"، تختلف في معناها في "الوجود" عن معناها في "الموجود".

وكثيراً ما ينتج عن اختلاط الأحوال في هذه المرتبة كلام تُشَم منه رائحة "الحلول" و"الاتحاد".

هذا التوحيد عند طائفة من الصوفية هو مقتضى مقام "الجمع"، وهذه مسألة عرفان ثم مسألة ذوق، واعتراف الإنسان في هذا المقام بوجود حقيقي لما سوى الله مخالف لمشاهدته وإحساسه؛ فمن سلّم بوجود الأشياء والأسباب وهو في هذا الحال شعر أنه أشرك بالله ﷻ، وبالعكس إن إنكار الأسباب دون بلوغ هذا المقام وهذا الحال رياءً وادعاء باطل؛ فمن لم يذق "الجمع" حُرِم من المعرفة، ومن لم يذق "الفرق" حُرِم من أسرار العبودية، أما الكامل فهو يُقَر بالجمع في موضعه والفرق في موضعه.

وأما الزمرة الثانية -وهم المتصوفة- فهم القائلون بوحدة الوجود مباشرة، فالوجود عندهم واحد، وهو وجوده سبحانه، أما الكثرة التي تشاهد في الكون فمحض خيال وسراب.

إذاً وحدة الوجود عند الصوفية حالٌّ من الأحوال وذوق من الأذواق الروحية، أما عند المتصوفة فنظريّة وفكرة فلسفية؛ ومنّ نحاً نحوهم من المتكلمين مثل جلال الدين الدواني ليسوا أقلّ عدداً ولا حماساً في دفاعهم المستميت عنها؛ أما علماء أهل السنة من عصر السلف إلى يومنا هذا فهم متفقون على أنّ "حقائق الأشياء ثابتة".

يذكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين" أنّ وحدة الوجود مردّها إلى القول بأنّ وجود الله عين ذاته، لكن المتكلمين يرون أنّ صفة الوجود زائدة على الذات كسائر الصفات، وواجب الوجود وممكن الوجود في هذا سواء؛ ويرى الإمام الأشعري أنّ الوجود عين الذات في واجب الوجود

والممكنات، ووافقه الفلاسفة في الواجب لا في الممكن، حيث يرون أنه ليس للأشياء إلا وجود اعتباري نسبي، والموجود الحقيقي هو ذات الله ﷻ؛ لأن وجود الله عندهم هو عين ذاته، ولأن الوجود هو وجوده تعالى.

والسؤال هنا: هل تُعدّ صفة الوجود وغيرها من الصفات السبحانية عين ذاته تعالى أو غيرها؟ مسألة فيها نزاع منذ قرون، لكن اتهام طائفة بينها كثير من علماء الأمة بأنهم وراء اتجاه الناس إلى وحدة الوجود أو وحدة الموجود ينتج عنه تضليل هذه الطائفة بمن فيها، وهذه تهمة عظيمة ينوء بها كاهل صاحبها.

يقول جلال الدين الدواني في رسالة "الزوراء" ما يفيد أن وجود الله هو عين ذاته، وأنه تعالى الموجود الحقيقي الوحيد، وليس معه موجود حقيقي آخر، وأن الوجود -من حيث إنه وجود- منحصر في وجوده تقدس وتعالى؛ وهذا يعني أن وجود غير الله وجود اعتباري مجازي لا حقيقي، ويذهب الدواني في هذا الكتاب إلى أبعد من ذلك فيقول:

"إن حدوث الشيء لا عن شيء محال، إن الشأن في الحدوث الذاتي أيضًا كذلك، ما أيسره أن تمارس ذلك. فإذا المعلوم ليس مُباينًا لذات العلة ولا هو ذاته، بل هو بذاته لذات العلة شأن من شؤونها، وجه من وجوها، حيثية من حيثياتها... إلى غير ذلك من الاعتبارات اللائقة.

فالمعلوم إذاً ليس إلا اعتباريًا محضًا، إن اعتُبر من حيث نسبته إلى العلة وعلى النحو الذي انتسب إليها كان له تحققه، وإن اعتُبر ذاتًا مستقلًا كان معدومًا بل ممتنعًا، والثوب إذا اعتُبر صورةً في القطن كان موجودًا، وإذا اعتُبر مباينًا للقطن ذاتًا على حياله كان ممتنعًا من تلك الحيثية؛ فاجعل ذلك مقياسًا لجميع الحقائق تعرف قول من قال: الأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود، وإنها لم تظهر ولا تظهر أبدًا، بل إنما يظهر رسمها.

لما كان تنتهي سلسلة العلّية واحدًا والكلُّ معلولٌ له إما ابتداءً وإما بواسطة فهو الذات الحقيقية، والكلُّ شؤونه وحيثياته ووجوده إلى غير ذلك من الاعتبارات اللائقة، فليس في الوجود ذواتٌ متعددة بل ذاتٌ واحدة لها صفاتٌ متكررة؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: ٢٣/٥٩) ^(٤).

ويذهب الشيخ محيي الدين بن عربي إلى أبعد من هذا وذاك، فيقول: هذا العالم المشهود مظهر وصورة، وليس موجودًا حقيقيًا، ولا موجودًا له دوام؛ فالله يتجلى دائمًا، والعالم يتجدد باستمرار، فالتجليات تتوالى، والعالم يتردد بهذه التجليات بين العدم والوجود، وإنما لا نرى أي انقطاع في الوجود لسرعة التجليات وتتابعها.

وبمثل هذا قال مولانا جلال الدين الرومي بأسلوبٍ ثريٍّ متألّئٍ، يقول:

"ومن نكون نحن؟ يا مَنْ أنت لنا روح الروح، حتى يكون لنا وجود مع وجودك!

نحن عدم، ووجودنا أنت، ذلك أنك وجود مطلق يُبدي الفانيات الزائلات.

ونحن كلنا أسودٌ لكن أسود العَلَم، يكون هجومها من الريح لحظة بلحظة.

وهجومها ظاهر، لكن الرياح ليست ظاهرة، فلا جعل الله مفقودًا ذلك الذي ليس بظاهر.

وإن رياحنا ووجودنا من عطيتك، ووجودنا بأجمعه من إبداعك.

(٤) جلال الدين الدواني: رسالة الزوراء، ص. ٢-٤.

لقد أظهرت للعدم لذة الوجود، وكنت قد جعلت العدم عاشقاً لك^(٥).

فمثل هذه الفكرة التي تعدّ كلّ التقلبات والتموجات في الكون تجلياتٍ للحقِّ ﷻ لا تنسب صفة الوجود لأي شيء سوى الله؛ فنسبة صفة الوجود لغير الله عندهم مجاز روعيت فيه الصورة؛ أمّا التنوع والكثرة في الأشياء التي هي تجليات الحق فمردُّهما إلى اختلاف استعدادات مرايا التجليات اختلافاً لا يغير شيئاً في وحدة الوجود.

ويعبر الجنيد البغدادي عن هذا المعنى بقوله: "لوّ الماء لوّ إنائه".

الوجود الحقيقي إذاً واحد كالنور تماماً، والكون كله انعكاس لهذا النور وتموُّج له، مثل الغيث والبرد والثلج صورها مختلفة وحقيقتها صور لشيء واحد، فالأشياء والحوادث الجارية جريان السيل صورها مختلفة، وحقيقتها جلوات لحقيقة واحدة.

هذه الآراء والأقوال تكشف أن المتصوفة الذين فهموا وبحثوا مسألة "وحدة الوجود" على أنها مسألة فلسفية زلت ألسنتهم بكلمات تتضمن أو توهم معنى الحلول والاتحاد، بينما عقيدة الصوفية الأوائل وأقوالهم في مسألة التوحيد خالصة صافية من كل هذه الإيهامات، ولا تدلّ على أكثر من "وحدة الشهود".

نعم، لم يكن بوسع المتصوفة التخلص من هذا الأمر؛ فهي عندهم مسألة علمية فلسفية، ويستدلون على معتقداتهم بآيات وأحاديث، منها هذه الآيات الكريّمات:

١- ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَى﴾ (سورة الأنفال: ١٧/٨).

(٥) مولانا جلال الدين الرومي: المشوي، [ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا]، ٨٧/١-٨٨.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (سُورَةُ الْفَتْحِ: ١٠/٤٨).

٣- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سُورَةُ ق: ١٦/٥٠).

ومن الأحاديث:

الحديث القدسي:

"إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: "يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْذِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تُعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؛ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؛ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي" (٦).

والحديث القدسي:

"مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْفُرُهُ الْمَوْتُ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" (٧).

ويمكن سرد ما يستدلون به من النصوص، وفي هذا القدر كفاية.

(٦) صحيح مسلم، البر، ٤٣.

(٧) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

وقد أفاض كبار رجال التصوف في بحث هذه المسألة، فلا داعي -في جواب سؤال- أن نستطرد في تاريخ وحدة الوجود، وليس هذا موضع بسط الكلام فيه، فنكتفي بمثالين فقط:

ففي الآيتين الأوليين ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ الصواب في تفسير مثل هذه الآيات حملها على المحكمات وتفسيرها تفسيراً منطقياً لا يورث تعارضاً بين مدلول آيات القرآن الحكيم، وهذا ما فعله المفسرون العظام حتى اليوم.

ولا يختلف كثيراً إن كان المراد من هاتين الآيتين هو نسبة الأفعال إلى الله تعالى أيّاً كان فاعلها، أو عدّها من معجزات النبوة، أو أن الله تعالى أضاف فعل أشرف عبادِه ﷺ إلى ذاته ﷻ لإظهار شرفه أو صواب فعله ﷺ أو لتأييده...

نعم، تأويل الآيتين بوجه من مثل هذه الوجوه سائغ، ولا شيء فيهما يشير إلى وحدة الوجود، بل تشيران إلى ثبوت حقيقة الأشياء؛ لأنهما تبيينان أن المؤمن غير الكافر، وأن هناك قاتلاً وآخر مقتولاً، وأن هناك مع المتكلم مخاطباً وغائباً، فهذا كله يغاير بعضه بعضاً، ولا تُستنبط وحدة الوجود من مثل هذه الآيات إلا بتأويلات متكلفة.

أما الآية الأخيرة ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فيستحيل قطعاً أن تُستنبط منها وحدة الوجود.

وأما الأحاديث التي يستدلون بها فلا تشير إلى وحدة الوجود، بل تنص على الكثرة في الوجود بشكل جلي.

ومن عقيدة الحلول والاتحاد التي يرفضها الجميع حتى المتصوفة القول بوجود العبد مع وجود الرب قبل أن يحظى العبد بالقرب من ربه، ثم ادعاء الوحدة بعد ذلك.

بل إن ما يقوله أهل الله يخالف مقصد هؤلاء، فكلامهم يشير إلى "الاثنية"، وإن بدا أنه يؤيد وحدة الوجود:

"حيناً تكون شمساً وحيناً تصير بحرًا، حيناً تصير جبل "قاف" وحيناً تصير "العنقاء".

ولا أنت هذا في حد ذاتك، ولا أنت ذاك، يا من تعلو على الأوهام، وتكثر على الكثير.

ومنك يا نقشاً كثير الصور، يكون المشبه والموجد ومن هو حائر بينهما!"^(٨).

والاثنية هنا ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل.

والواقع أن المتصوفة يتجولون في ميدان الكثرة أيضاً؛ فبينما يبحث بعض الناس في عباراتهم المزيّنة عن أدلة على وحدة الوجود، لا تخلو أقوالهم عما يعبر عن الكثرة مثل "قتل النفس" و"إفناء الأنا"...

لماذا يعانون مثل هذه المشاق في التزكية من النقائص وبلوغ الكمالات إذا كانوا يدعون الوحدة وينكرون حقيقة وجودهم، وميزان هذه الشخصيات العظيمة في عبوديتها لله تعالى فيه حساسية تنفي قطعاً نظرية وحدة الوجود الفلسفية:

إنّ مؤيد هذه النظرية الذي يعتقد بأنه مكلف بتكاليف شرعية يكون قد ميّز أولاً بين المأمور والأمر، فدعوى وحدة الوجود مع الاعتراف

(٨) مولانا جلال الدين الرومي: المشوي، [ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا]، ٢/٢٩-٣٠.

بالتكليف فيها ما فيها من التناقض؛ فلم يجرؤ أحدٌ من المؤمنين قط على إنكار أننا مأمورون بأوامر الله سوى زنادقة أنكروا التكليف أصلاً.

فمفهوم وحدة الوجود عند الصوفيّة ينحو إذاً نحو وحدة الشهود، أو معناه في الحقيقة وحدة الشهود؛ وهذا المفهوم عندهم مردّه إلى الاستغراق وتغلّب "الحال" عليهم والقصور في التعبير عما يجدونه في أفئدتهم؛ أما مفهوم وحدة الوجود لدى المتصوفة فهو تفلسف في هذا الإدراك القلبي والمشاهدة المعنوية بل إنه تبين لفكرة فلسفية غريبة.

ولا ينبغي لأحد أن يظن أن كبار علماء المسلمين يدافعون عن فكرة "بانتئيزم" رازحين تحت تأثير الأفلاطونية الحديثة (*Necplatonism*)، بل غاية ما يمكن قوله أن هؤلاء العظام لم يروا بأساً عند الإفصاح عن مشاهداتهم وإحساساتهم في استعارة بعض الألفاظ والتعبيرات من "نيو بلاتونيزم"، لكن هناك بون شاسع بين الفريقين في مفهوم الذات الإلهية. فأمثال هؤلاء ممن يوازنون بين الدنيا والعقبى كما جاء في القرآن الكريم لا يمكن أن يعتقدوا بمثل ما يعتقده المتصوفة من وحدة الوجود، والدليل على ذلك ما يأتي:

١- الاعتقاد بأنّ الإله يسري في الكون كله في كل مكان وفي كل شيء يعني أنّ كل شيء إلهٌ ثميناً كان أم خسيساً، وهذا ما يرفضه العقل والنقل قطعاً.

٢- يبرهن القرآن بالأشياء أحياناً على وجود الله ووحدانيته، وهذا دليل على أن حقائق الأشياء ثابتة.

٣- في القرآن الكريم آيات كثيرة تنص على أن كل شيء هالك إلا هو سبحانه، ثم تبشر بالعوالم الجديدة المعقّبة لهذا الهلاك؛ فالهلاك فناء شيء موجود، والكلام عن هلاك ما لم يوجد أصلاً عبث لا معنى له، والقرآن منزّه عن العبث.

٤- الأنبياء والمرسلون كلهم علّموا أممهم وقرّروا أنّ كل شيء كبيره وصغيره أوجدَ وخلق بعد عدم، وأن علاقته بمن أوجده علاقة مخلوق بخالقه؛ فما يقوله المتصوفة حول وحدة الوجود يكذب الأنبياء وما أوحى إليهم، وهذا افتراء قبيح وتجاوز شنيع على من هم أصدق الناس حديثاً.

٥- في القرآن الكريم آيات ترغيب وترهيب، تبشّر المطيعين بالشواب والعاصين بالعقاب، فهذه الآيات لن تكون لها دلالة على شيء وفقاً لمفهوم وحدة الوجود؛ فالقول بوحدة الوجود يستحيل أن تجيب معه عن الأسئلة التالية: "من المطيع؟" و"أين الشواب؟" و"من المجرم؟" و"ما العقاب؟".

٦- لو عُدَّت الأشياء هي هو ﷻ، والحوادث الجارية جريان السيل مظهرًا من مظاهره فلا معنى لذمّ الشرك والمُشرك والأصنام وعبدة الأصنام؛ فما دام كلّ حادثة مظهرًا من مظاهره فلا يُتصور أن تكون غيره؛ لكن القرآن والسنة أثبتا عقيدة التوحيد، وهما أعظم خصم للشرك وعبادة الأصنام.

٧- مفهوم وحدة الوجود الفلسفي يستلزم قدم المادة، وهذا كفر بالإجماع، وأولياء الله برآء من ارتكابه.

٨- كلُّ ما أُورد دليلاً على وحدة الوجود، يدل في الحقيقة على الكثرة في الوجود.

وبعد كل ما ذكرناه نقول: إن بين مفهوم وحدة الوجود عند الصوفية والذي عند الفلاسفة فروقاً واضحة كثيرة، فهي عند الفلاسفة (بانتيزم) تبدو في الظاهر شبيهة بما عند الصوفية، لكنها ترى أنَّ الله والعالم شيء واحد، وهذا يحتمل معنيين:

١- الموجود الحقيقي الوحيد هو الله، أما العالم فمجموعة مظاهر أو أشكال وفيوضات، وهذا ما ذهب إليه "سبينوزا" (*Spinoza*) .

٢- الموجود الحقيقي الوحيد هو العالم، والله -حاشا لله- هو مجموع الكائنات، وهذا مذهب الوجودية الطبيعية أو الوجودية المادية، وعليه "هيجل" (*Hegel*) وأنصاره.

وعلى ذلك نقول:

يعبر الصوفية عن فئتهم في واجب الوجود بإنكار العالم؛ أما هؤلاء فيحاولون إنكار خالق العالم.

وتستلزم فكرة وحدة الوجود لدى الصوفية "وحدة الشهود"؛ أما نظرية الآخرين فتستلزم "وحدة الوجود" (*Monism*) .

وقع في كلام الأولين (الصوفية) متشابهات لقصور في التعبير عن أحوالهم ومشاهداتهم واستغراقاتهم؛ أما الآخرون فسلكوا هذا المسلك للتفلسف.

والأولون ينطلقون من اعتقادهم بالله، ثم ينظرون إلى الأشياء والحوادث ويقيمونها في ضوء هذا؛ أما الآخرون فنظريتهم تجعل الله -حاشا لله- تابعاً للكائنات.

إن ما عند الأولين ذوق روحانيّ؛ وما عند الآخرين نظرية صرفة.
ومسلك الأولين قائم على التواضع وإنكار الذات؛ أما مذهب
الآخرين فقائم على "التشبه بواجب الوجود" تعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً.
والله أعلم بالصواب.

التناسخ ورأي الإسلام به

سؤال: ما معنى تناسخ الأرواح؟ وما موقف الإسلام منه؟

الجواب: التناسخ لغةً من النسخ، واصطلاحًا: انتقال الأرواح من جسد إلى آخر؛ ويطلق عليه الفرنسيون "ميتامبسيكوز" أي التقمص، والقائلون به يرون أن الأجساد أشبه بقالب للأرواح كأنها ثكنة عسكرية، تدخلها الأرواح وتعيش فيها وتعمُرُها، فإذا ما تحللت الأجساد انتقلت الأرواح إلى أجساد أخرى، وتظل كذلك في تداولٍ زمنيٍّ مستمر.

وقد نجد عقيدة التناسخ لدى أكثر المجتمعات البدائية، لكن تظهر في صور شتى وفقًا لعقيدتهم وثقافتهم المحلية واختلاف بيئتهم؛ فثمة اختلاف بين مفهوم التناسخ بين المصريين القدماء والهندوس المفتونين بالخلود، وله معنى مغاير جذريًا لدى الفلاسفة اليونانيين في عباراتهم الثرية المزخرفة.

واشتهر التناسخ كثيرًا في عصرنا الذي كثرت فيه التجارب الميتافيزيقية المتنوعة، وغدا اليوم مذهبًا عقائديًا أساسه انتقال الأرواح، وعظم الاهتمام بهذه النوعية من المسائل، وغدت ردًّا فعل للفشل الذي منيت به المادة لا سيما في المحافل الاجتماعية الراقية، حتى إنه ما اجتمع نفر في مكان ما إلا دار بينهم حديثٌ عن تأثير ما وراء الطبيعة في الطبيعة وقوانينها، وظهور الأرواح وتنبئها وتنويرها أو إغوائها وتضليلها.

وأريد أن أنتقل إلى موضوع السؤال مع إشارة إلى منشأ ظاهرة التناسخ؛ إذ لا يتسع الجواب للتفصيل في تاريخ التناسخ أو في حوادث ما وراء الطبيعة وما وراء علم النفس في أيامنا.

من الناس من يرى أن عقيدة التناسخ قديمة ولها جذور عميقة، فأكثروا من نسج الأساطير حولها، وعدوا قصص هيرودوت حقيقة -وَجَلَّهَا أساطير كاذبة-، ودعامة لهذا الأمر حاولوا حشد الأكاذيب الوهمية في الحكايات الشعبية الواردة في مؤلفات "أوفيد" (*Ovide*)؛ وزعم قوم أن رحلة الأرواح هذه ليست في البشر فحسب بل تشمل الحيوانات والنباتات، قال شارح كتاب "جامكيتنوما" (*Camgitinūma*): "يرى القائلون بتناسخ الأرواح أن رحلة الأرواح تمتد إلى الموجودات كلها؛ فثمة موكب من الأرواح ينتقل من أبدان البشر إلى الحيوانات، فالنبات، فالجمادات والمعادن، ومن البر إلى البحر وعكسه. ويطلقون "النسخ" على انتقال الروح من جسم إنسان إلى آخر، و"المسخ" على انتقالها إلى جسد حيوان يناسبها، و"الرسخ" على انتقالها إلى النبات والأشجار، و"الفسخ" على انتقالها إلى الجماذ."

هل تأثرت هذه العقيدة بمفهوم الروح الكلية، وما علاقتها بالحلول والاتحاد؟ من الصعوبة بمكان أن ننكر أن هاتين النظريتين المنحرفتين هما منشأ التناسخ، وذكر "تايلور" (*Taylor*) "أن لمفهوم التناسخ علاقةً وطيدة ببقاء الروح الذاتي، وحاولوا قرونًا طويلةً تفسير شبه الأبناء والأحفاد بالأجداد بمسألة التناسخ؛ ونحن نفسره اليوم بقانون الوراثة.

قيل: كانت بداية ظهور عقيدة التناسخ في حوض النيل، ويمكن استشعار هذا إلى حد ما في أوجه المومياوات البشعة وفي الأهرامات الحافلة بالأسرار؛ وهذه العقيدة انتقلت من مصر إلى الهند ومنها إلى اليونان، وأتخذت أملًا وسلوى في قلب الإنسان التواق إلى الخلود، بين أقوال الفلاسفة الأخاذة، ونغمات أهل "الغانج" و"السند" المفتونين بفكرة الخلود. وبعض "الكابالين" أدخلوا فكرة التناسخ إلى عقائد بعض الأديان السماوية، وتأثرت بها فرقة من متصوفة الإسلام رغم رفض المتكلمين

لها جذريًا؛ وأتى كلُّ بأدلة على دعواه، فمثلاً ذكر الكاباليون ما جاء في التوراة من أن بطلة الأساطير اليونانية "نيوبي (Niobe)" غدت رخامًا، وزوجة لوط ^{عليه السلام} تمثالًا من غبار؛ والذين جاؤوا من بعدهم ذكروا مسخ طائفة من اليهود قرده، وأخرى خنازير؛ وبلغ الأمر بأناس أن أحلوا الروح في كل شيء فقالوا: سرّ الانسياق الفطري لدى الحيوان والنظام والتناغم لدى النبات هو انتقال أرواح الناس إليهما.

والقول بمثل هذا الحكم الصادر عن غير رويّة في حق الإنسان لا يمكن إلا بتكلف، دع عنك تعميمه على النبات والجماد، فقليل من التفكير يرشدك إلى أنه مستحيل.

ولا جرم أن الجمادات والنباتات لها برنامج معين وقَدَرٌ يصرفها، أما إسناد ما فيها من نظام وميزان إلى أرواح ذات تجارب تحلّها فهو أمر باعثٌ على السخرية، ولا أصل له مطلقًا، والحق أن للنبات والشجر حياة نباتية خاصة، لكنها ليست ألبتة روحًا إنسانية تدتّ أو مهيةً للرقى ومرشحة لتبلغ مستوى الإنسان؛ ورغم هذا القدر من الأبحاث والاختبارات لم تقف البشرية على رسالة من أي نبات تثبت وجود روح إنسانية خبيرة تديره، ولا على أي ذكرى للحياة النباتية والحيوانية في أي روح تعيش مرحلة الإنسانية -بزعمهم-، ومن أكبر أدلتهم على عقيدتهم هذه انتقال المعلومات والذكريات القديمة؛ بيد أننا لم نسمع حتى الآن سوى هذيان بضعة مجانين أو جملة من الأخبار المثيرة.

وما ورد في التوراة عن مسخ "نيوبي" رخامًا، و"والهة" زوجة لوط ^{عليه السلام} تمثال غبار لا دليل فيه على التناسخ ألبتة، هب أنا سلّمنا بهذا رغم ما فيه لكنّ معناه أنّ الروح لما قُبضت اصطلى الجسد بلفح النار، فغدا غبارًا بمقتضى نوع البلاء الذي حلّ به، أو أنّه قد تصلّب مثل الجمادات تحت الحُمم البركانية.

نعم، أنواع الأحافير التي عثر عليها في أنحاء العالم كافة لا تُعدّ ولا تُحصى؛ فمثلاً جعلت حمم بركان فيزوف مدينة بومباي الإيطالية كومة ركام، ثم كشفت الحفريات التي أجريت هناك بعد عصور عن مجموعة كبيرة من التماثيل الرخامية أمثال "نيوبي"، وعندما نقيب في ركام الانقراض اليوم نستوحي منها العبرة، ونذكر أن حياة ملؤها الخزي والعار كانت وراء طغيان الناس، ونرى آثار غضب الله عليهم.

وهذه المادة الإثنوغرافية إنما أودعت في حجر المستقبل المكين لتكون عبرة؛ وتفسير ذلك بالتناسخ دعوى بلا يئنة، واستخفاف بالعقول؛ إذا كان التناسخ انتقال أرواح من أجساد الموتى إلى أجساد أخرى فأية روح انتقلت؟ وفي أي جسد حلّت؟ نعم، قد قبضت أرواح قوم أكثرهم مجرمون ومُسخّت أجسادهم حجارة لتكون عبرة ودرساً للاحقين.

لقد تطورت عقيدة التناسخ في مصر واليونان وحوض نهر الغانج أملاً في خلود الروح، وقد استندت على عقيدة أخروية وُظفت توظيفاً منكراً. لم يكن أحد في مصر "أخناتون" أو في يونان "فيثاغورث" يعلم شيئاً عن عقيدة التناسخ التي أظهرتها التحريفات؛ كان أخناتون يرى أن الإنسان يبدأ حياة سماوية جديدة بانقضاء حياته على الأرض، فلا يكاد يموت حتى تعرج روحه إلى المحكمة الكبرى في السموات العلى، وما تزال ترتفع حتى تمثل بين يدي "أوزوريس" لثُقِرَ بما كانت عليه في الدنيا وتحظى باللاحق بجماعته؛ وصيغة الإقرار: "جئتكم مبرراً من كل ذنب، وقضيت حياتي فيما يرضي الربانيين، لم أقتل ولم أسرق ولم أفسد ولم أسئ إلى أحد ولم أرتكب الفاحشة..."؛ أما الروح التي تخفق في ذكر هذا فتطيش كفتها، فيؤمر بها فتطرح في جهنم، وتمزقها زبانياتها إرباً إرباً.

ونكاد نلمس عقيدة صافية نقية أيضًا في كتابات جَلَّت الحقائق الإيمانية في ديانة أختاتون، يقول: "ما أكثر نعماءك! والناس عنها غافلون، أيها الإله الأحد، لا قوة تبلغ قوتك، خلقت الأرض كما شئت، والبشر قاطبة، والحيوانات كافة صغیرها وكبیرها، ما يمشي منها على الأرض، وما يحلق بجناحيه في جو السماء، وأعطيت كل سائل مسألته، وأبدعت بفضلك كل جميل، ومنه تراك كل الأعين، أنت في قلبي يا إله الكون..."^(٩).

ما نقلته هنا دون أن أضيف شيئًا عليه كانت مصر تعدّه حقيقة كبرى تؤمن بها منذ نحو أربعة آلاف سنة.

أما اليونان فكانت عقيدة الإيمان باليوم الآخر وخلود الروح راسخة عندهم، يذكر الفيلسوف الكبير "فيثاغورث" أن للروح بعد أن تفارق الجسد حياة خاصة، حظيت بها قبل الهبوط إلى الأرض، ولما هبطت حُمِلت تكاليف معلومة، فإن أساءت طُرحت في جهنم ومزقتها زبانيتهَا إِرْبًا إِرْبًا، وإن أحسنت فلها الدرجات العلى والحياة الطيبة.

نعم، إذا نظرنا إلى هذه النصوص بعد الاعتراف بما شابها من الخلل الممكن رجوعه إلى رُواتها، وجدنا عقيدة حشر قد بُحِثت بأسلوب لطيف وهي ليست عن الصواب ببعيد.

ولا يختلف عن هذا ما قاله أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، فهو يرى أنّ الروح إذا فارقت الجسد أعرضت عن الحياة المادية جذريًا وشَغَلها التمتع في الحقيقة ليس إلا، وهكذا ترقى الروح إلى عالم ملائم لها؛ عالم لاهوتي مفعم بالحكمة والخلود، وتتنزه عن نقائص كانت تقتضيها الطبيعة البشرية كالقصور والخطأ والخوف وحتى عوامل الألم في الحياة المادية من حب وعشق... أي من جميع ما تستلزمه الطبيعة البشرية لتحظى بسعادة بالغة وحياة حميمة بصحبة الربانيين.

(٩) أنظر: جيمس هنري برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ص. ٢٤٥-٢٤٨.

وبعد كل ما رأينا إن وجدنا ما يشبه التناسخ في عقائد أمم تتبع مثل تلك المناهج الفكرية، فعلينا أن نجزم أنها نتاج تحريف مُنيت به تلك العقائد.

ولما غدت عقيدة التناسخ المتجذرة في مصر مداراً للملاحم والأغاني الشعبية في دول حوض النيل كلها من أقصاها إلى أدناها، اكتست تلك العقيدة حُلاً خيالية مزرکشة كسَّتها إياها العقول الولود لفلاسفة اليونانيين، فنفذت إلى الأساطير، حتى غدت أسطورة الأرض بأسرها.

ومن أخذ بهذا المفهوم من الهنود يعدّ المادة التجلي الأخير لـ"براهمان"، وحلول الروح في الجسد شراً وخسّة؛ ويعتبر الموت ترفعاً عن النقائص البشرية، ووسيلةً لبلوغ الحقيقة والرقى إلى الوجد والاستغراق؛ وللهندوسية نصوص عظيمة الأهمية عندهم بعنوان "فيدانتا"، تصور أن الروح الأعظم "أتمان" والإله "براهمان" شيء واحد، وأن الروح تنتقل من قالب إلى آخر، ولن تنجو من الأسى والألم إلا إن عادت إلى أصلها؛ وإنما تبلغ الروح مرادها -وهو المعرفة المقدسة- بالتطهر من الأنانية ومفاسدها والجري نحو المعبود المطلق جريان النهر إلى البحر؛ فإذا تحقّق الوصال عمّت السكينة والسكون مثلما يحصل في "نيرفانا" البوذية، إلا أن في البوذية نوعاً من الفناء والانطفاء والخمول، مقابل ما في البراهمانية من روح فعّالة إيجابية.

ثم اعتنق بعض اليهود عقيدة التناسخ، ولما دسّ "الكاباليون" هذه العقيدة في أديرة حصن الإسكندرية نفث غلاة الشيعة تلك العقيدة بين المسلمين وإن بقدر ضئيل؛ ومما يلفت النظر أن الحلول والاتحاد قاسم مشترك بين الأمم القديمة والحديثة المعتقدة في التناسخ؛ وهذا خطأ عام وقعت فيه أقوام سلكت هذا الطريق المنحرف فذهبت المذهب

نفسه، فالأخناتونية في حق أخناتون، والبراهمانية في براهيمان، واليهودية في عُزير عليه السلام، والمسيحية في المسيح عليه السلام، وغلاة الشيعة في سيدنا علي عليه السلام؛ أما ما في أقوال بعض المتصوفة مما يوهم التناسخ فهو إما من درج المغرضين وإما من الرموز التي يجب تأويلها...

أما علماء أهل السنة المحدثون منهم والفقهاء والمفسرون والمتكلمون فقد أجمعوا على أن عقيدة التناسخ تناقض حقيقة الإسلام، ومن أسباب إنكارهم لها أن المرء يعيش بقدره، ويموت بقدره، ويحشر بعمله، ويجب على السؤال بنفسه، ويحاسب هو لا غيره على سيئاته وحسناته. نعم، يستحيل قبول هذه العقيدة الفاسدة لأمر:

أولاً: مقتضى الإيمان باليوم الآخر أن المرء سيحاسب بحسب منعطفات حياته، ففي أي شخص ستُحشر روحٌ حلت في آلاف الأجساد؟ وبأية حالة ستُثاب وتُعاقب؟.

ثانياً: الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء فيها قائم على أساس الإيمان بالغيب؛ فعقيدة التناسخ تنقض نفسها بنفسها وتقوض نفسها بنفسها؛ إذ إنها تقضي بأن الروح التي اقترفت الآثام في الدنيا تُعاقب بحلولها في جسد مخلوق وضيع، وإذا سنحت الفرصة للانتقال إلى جسد آخر فستحاول التخلص من تكرار عملية الحلول لما تجرعت من معاناة وآلام، فلم يعد في المسألة شيء له صلة بالإيمان بالغيب أصلاً...

ثالثاً: لو قُضي بأن تنتقل الأرواح بين الأجساد من هذا إلى ذاك ومنه إلى آخر لينعم كل فرد بالسعادة المطلقة، لترتب على ذلك نسبة العبث -حاشا لله- إلى وعد الله ووعيده، بالثواب للصالحين وبالعقاب للظالمين، وهذا باطل ومحال في حق الذات الإلهية...

رابعاً: في القرآن الكريم والكتب السماوية أن غفران الذنوب ممكن، وهذا شأن من وسعت رحمته كل شيء؛ وهذا يعني أن الرحلة الطويلة التي تقطعها الأرواح في ألم ومعاناة طلباً للغفو والغفران والتطهر من الذنوب لا جدوى منها ولا طائل.

ويبدو أن بوذا رأى "نيرفانا" ذات الفناء والانطفاء أكثر أماناً من تلك الرحلة الشاقة، ودعا من غلب عليه الهم من البراهمانية إلى هذا الأفق ذي السكينة والطمأنينة.

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الله يغفر الذنوب جميعاً، فالله سبحانه وتعالى يتوب على من تاب، ولا عبرة بكثرة الذنوب وقتلها، ولا للإصرار على الذنب وإن دنا الأجل؛ فَرُبَّ عاصٍ قضى عمره كله في أحوال المعاصي والذنوب تصيبه رحمةُ الله تعالى بساعةٍ قضاها في طاعته سبحانه...

خامساً: التناسخُ وتلك الرحلة الطويلة الشاقة التي تقطعها الروح طلباً للراقي في تداول زماني مستمرٍّ أمرٌ يناقض رحمة الله تعالى وإرادته؛ فهو ﷻ لو شاء أن يجعل الأشياء الحقيرة المستقدرة ذهباً خالصاً وأثمن الأشياء لفعل من ساعته، وهذا من عظيم فضله وإحسانه...

سادساً: من أتباع الرسل من ارتكبوا المعاصي والآثام قبل إسلامهم، وبعد ماضٍ مظلم طويل بلغوا رتبة عالية وبدؤوا الأولياء، وهذه حقيقة قائمة جليلة؛ نعم، إن الرقي إلى قمة الكمال دفعة واحدة دليلٌ على عظيم فضل الله، وإشارةٌ إلى أن انتقال الأرواح بين الأبدان طلباً للراقي كلام لا محل له من الإعراب...

سابعاً: التسليم بأن لكل جسد روحاً خاصة من مقتضيات الإيمان بقدره الله المطلقة على الخلق، أما القول بانتقال طائفة محدودة

من الأرواح وإدخالها في الأجساد وإخراجها منها فإنه إسناد العجز إلى من هو على كل شيء قدير، فعقيدة التناسخ باطلة عقلاً...

ثامناً: أليس ضرورياً وجود أمارات لدى بضعة ملايين من بين بضعة مليارات نسمة يعيشون على وجه الأرض على الأقل لتبرهن على التجارب الحياتية التي خاضتها أجساد انتقلت منها الأرواح؟ فإن لم توجد أمارات فلا أقل من أن يشكّل ذهاب الروح ومجيئها إلى الدنيا مرآة ثقافة عامة متراكمة لدى بعض الناس؟ ولو حدث هذا ولو بنسبة ١٠٠٠/١ من سكان العالم، لَلَقِينَا منهم واحداً أو أكثر أينما ذهبنا، لكن أين هم؟!

تاسعاً: وكان لا بد أن يظهر في مختلف شرائح المجتمع أطفال ذوو مكتسبات قديمة ورثوها من أرواح قديمة انتقلت إليهم؛ هل لأحد إلى هذا اليوم أن يذكر واقعة واحدة ثابتة في هذا الأمر؟ فإن شوهدت أحوال خارقة من بعض الدهاة والملمهين فلا يعدو هذا أن يكون مدداً سماوياً أو قوة حافظة للأمور من نبيه فطن، وليس هذا من المكتسبات الناجمة عن تناسخ الأرواح في شيء؛ ولا دليل حتى اليوم على وقوع حادثة تثبت أن جسداً يعيش بروح شخص آخر، اللهم إلا خبراً مثيراً أو اثنين تناقلته بعض الصحف ومثله هذيان بعض المجانين...

عاشراً: لم تظهر أية أمارات حتى اليوم تثبت وجود طبائع إنسانية في كائنات حية أخرى؛ ولو سلمنا بوجود روح تحمل خصائص اكتسبتها من أجساد دخلتها من قبل، فإنها مهما بلغت حسنة حياتها فلا بد أن يكون لها انفعالات تكاد تتجاوز حدود طبيعتها؛ ورغم تقدم الدراسات النباتية إلا أننا لم نجد في النباتات أية أمارات على التناسخ...

وقصارى القول أن منشأ عقيدة التناسخ انحراف عقائدي لدى الأمم السابقة، وأما الإنسان اليوم فلا أصل للتناسخ عنده إلا في مكر

الأرواح الخبيثة وتلبس الشياطين ببعض الأجساد وتحكمها بها؛ ويدلُّنا قول الصادق المصدوق عليه السلام: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ" ^(١٠)، أن الشيطان له سلطان على العقل والقلب، ويُظهر لنا الحديث شيئاً من الوجه الحقيقي لذلك الهذيان الذي يُسمى التناسخ.

ولا يُعقل أن يعتقد الإنسان -الذي خلقه الله في أحسن تقويم- بخرافة لا تقوم على تجربة ولا عقل ولا نقل...

والله أعلم بالصواب.

(١٠) صحيح البخاري، الاعتكاف، ١١؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣.

الصلاة في القطبين

سؤال: الصلوات الخمس فرض، لكن الليل في القطبين يستغرق ستة أشهر والنهار ستة أشهر أخرى، فكيف تُؤدّى الصلاة في تلك المناطق؟

الجواب: لا نعلم نية السائل؛ فهذا السؤال يطرحه غالبًا الملاحدة الذين ينكرون أن الإسلام دين عالمي، أرادوا أن يقولوا: أنتم تسلمون بأن الإسلام دين عالمي، لكن يا ترى هل يمكن أن تؤدى أركان هذا الدين بما فيها من صلاة وصيام في مناطق يستغرق الليل فيها ستة أشهر والنهار ستة أشهر أخرى؟

أنوه بداية إلى أن الأنظمة كلها عاجزة أن تبلغ ما بلغته عالمية الإسلام؛ فهناك أنظمة الآن تتخللها آلاف العيوب والأعطاب يستحيي الإنسان أن يسميها نظامًا، بل منها ما خضع للتعديل والتنقيح مرارًا ومؤسسه ما زال على قيد الحياة، فمثلاً نظام ماركس الاقتصادي رغم ما أجراه عليه "أنجلس" من تعديل وتنقيح فإنها تعديلات خضعت هي الأخرى أحياناً للتعديل والتنقيح، وألبست في كل مرة زيّاً جديداً.

واللافت أن شتى أنواع الأنظمة خضعت لهذا الأمر في الأزمنة كافة، بما في ذلك الأنظمة الاقتصادية اليوم؛ وهذا مردّه إلى نقص بشريّ.

وأضيف أنني لا أقصد بمثل هذه المقارنة العدول عن المسألة أو الاستخفاف بها، ولكن الديالكتية الجدلية هي مذهب البعض ومشربه، فتنتزل أحياناً إلى مستواهم ونسلك معهم أسلوب الأطفال.

ثانيًا: يا ترى كم نسبة من يعيش في تلك المناطق إلى سكان العالم حتى نعرض دينًا عالميًا للنقد من أجل أحوال خاصة عارضة؟ أجل، كم نسبة من يعيش في بلاد الظلمة والجليد إلى عدد الإنسانية؟ ربما لا يصل إلى ١/١,٠٠٠,٠٠٠؛ فإغفال البشرية قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية كلها، واتخاذ حالة بضعة أشخاص مناطًا للأحكام الشرعية ومثارًا للشبهات والظنون أمرٌ يخلو من الإخلاص والعلم.

ثالثًا: يا ترى هل هناك مسلمون يعيشون في القطبين حتى تشغلنا مسألة صلاتهم ونسأل عن كفيتهما؛ فلو حدث أن استوطن مسلمون يومًا في القطبين، وسأل سائل عن العبادات والشعائر صار للسؤال معنى ومغزى، وإلا فمثل هذه الأسئلة محاولة لإثارة الشبه والشكوك في قلوب الأبرياء، وما إن يجري الحديث مع الماديين حتى يشرع اللسان في جدالهم رغم أن القلب لا يستهوي ذلك، فمعذرة!

ولنعرض باختصار لما جاء به الإسلام في هذه المسألة: لا ريب أن الإسلام الذي لم يدع شاردة ولا واردة إلا أحصاها لم يغفل هذه المسألة، وأما اللثام عنها منذ بداية عصر النبوة في معرض حادثة تتصل بهذا الأمر؛ روى مسلم في صحيحه وأحمد بن حنبل في مسنده أن النبي ﷺ ذكر الدجال وقال: "إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةَ بَيْنِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: "أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: "لَا، أَفْذَرُوا لَهُ قُدْرَةً"^(١١). نستنتج من ذلك أن الأشهر والأسابيع التي كلها ليل أو نهار تقسم إلى أيام من أربع وعشرين ساعة، وتقدر العبادة فيها بقدرها.

(١١) صحيح مسلم، الفتن، ١١٠ المسند لأحمد بن حنبل، ١٧٣/٢٩.

ولما جاء الفقهاء بينوا هذه المسألة في باب مواقيت الصلاة، فغدت معلومة للجميع بما لا يدع مجالاً لأي لبس فيها؛ وسنتطرق إلى ما يخص موضوعنا من باب المواقيت:

الأوقات هي أسباب للصلوات، فإنْ عُدَّ الوقت فلا صلاة، فمثلاً إنْ عدنا وقت صلاة العشاء في مكان ما لم تجب، وهذا يسري في المناطق التي يخلو اليوم فيها من وقتٍ من أوقات الصلوات؛ أما حينما يستغرق الليل أو النهار جزءاً كبيراً من السنة كما في حديث الدجال فعلياً أن نقسم هذا اليوم الطويل أو تلك الليلة الطويلة بقدر أيامنا وليالينا المعتادة، ونقدر أوقات العبادة فيها بقدرها ونؤدي صلاتنا، أي نستخدم توقيت أقرب مكان للمنطقة، ونقسم الليل والنهار إلى أجزاء معلومة، ونؤدي عبادات الليل فيما نعتبره ليلاً وعبادات النهار فيما نعتبره نهاراً كما نحدد بشكل طبيعي فطري أوقاتاً معينة للطعام والشراب والنوم. أجل، فكما نخضع لقوانين الفطرة في المناطق التي لا تشرق عليها الشمس أو تغرب عنها شهوراً، فعلياً كذلك أن نحافظ هكذا على أداء عبادتنا من صلاة وصيام بما يناغم الحياة التي نعيشها.

إذاً لم يغفل الإسلام هذه المسألة قطعاً كما لم يغفل سائر المسائل، فأوجب العودة لتوقيت أقرب مكان للقطبين تبيين فيه أوقات الصلوات الخمس.

أخيراً أقول: وإن كانت الأوقات من أسباب وجوب الصلاة إلا أن السبب الحقيقي للصلاة هو أمر الله؛ فالأحوط في الأماكن التي ينعدم فيها وقت صلاة قضاء هذه الصلاة في وقت آخر.

والله أعلم بالصواب.

زواج أبناء آدم عليه السلام

سؤال: لِمَ حُرِّمَ زواجُ الأخِ بأخته وقد كان حلالاً لأولاد آدم وحواء ﷺ؟

الجواب: نشاهد اليوم -مع الأسف- بعضَ البؤرِ تثير مثل هذه الأسئلة وتُشيعها بين الشباب بشكل منظم؛ وهؤلاء يتعذر تصديق دعوى حسن النية لديهم؛ وشيء من النظر يكشف ما يستهدفونه بإثارة هذه الأسئلة؛ فلعل من أهم أهدافهم بل ربما أولها إيهاَم التناقض في مبادئ الدين.

وفي خبايا هذه الأسئلة دعايات وشعارات هدامة لبعض أنظمة النفاق، منها مثلاً -حاشا لله-: "لا إله والحياة مادية، الدين أفيون الشعوب، المقدسات الدينيّة تابوهات وأدوات استغلال بيد الإمبريالية؛ حدود الحلال والحرام بين أفراد العائلة نقيض ما أثبتته الحقائق العالمية... إلخ". ولما انكشف المستور وراء هذه الدعايات والشعارات الخبيثة برزت جملة من القضايا المفزعة، منها: "لقد وصل الدين إلى يومنا هذا وهو يحمل تناقضات كثيرة، وها هو اليوم يفقد مرجعيته بعد انتصار العقل والمنطق عليه؛ فلا يترددن أحد في فعل ما يهوى ويشتهي ولو أن ينكح محارمه".

تلك هي الخطط القذرة والأهداف الخبيثة الخفية في خبايا أسئلة تبدو بريئة، ويا له من خِداعٍ وتضليلٍ للسذج من وراء ستار الوضعية والعقلانية! أجل، هناك في المجتمع من يستهدف تقويض أركان الدين ومقاصده في حفظ الدين والنسل، فيثير أسئلة كهذه؛ ونظرة فاحصة لتربتها التي نبتت فيها تبين أنها من جنس فكرهم المعوج؛ والقاعدة أن الحق

هو نقيض ما يزعمون ويدّعون، إذاً فما نحن عليه هو الحق، هذا الجواب يكفيهم لكننا نريد أن نقول بضع كلمات حول هذا الموضوع:

١- هذه المسألة مسألة دينية أولاً، ومن مسائل الدين الفرعية ثانياً، والذين لا يؤمنون بالدين وينكرون مبادئه ليس لهم قول شيء في مثل هذه الأمور البتة.

٢- لا ريب أن الدين بأوامره ونواهيه مُلزم لمن يؤمن به؛ فإذا صدر عمن يجحده ما تهواه نفسه فليس للمؤمنين أن يتعرضوا له؛ فضلال العمل والسلوك ثمرة لانحراف الفكر والتصور؛ ومن العبث محاولة تقويم ذاك قبل هذا.

٣- هذه المسألة من فروع الدين لا من أصوله، ومثل هذه المسائل يعترئها تطوّر مستمرّ يوائم التكامل البشري؛ وما كُلفنا به من أمر ونهي أيّا كانت حكمته مثل ما كُلف به من قبلنا، فالمهم في هذا الخصوص امتثال أمر الأمر؛ نراه أمس ينهى عن نكاح التوأم بعضهما، واليوم يأتي بنهي جديد مناسب لطبيعة العلاقة بين الأب والأم ويقضي بتحريم كذا وكذا؛ ومثل هذا كمثل سنّ قوانين لمراحل نمو الطفل في المأكّل والمشرب والملبس، بل حتى التحدث بلسانه ومستواه؛ ومثل هذا روعي في الحياة الإنسانية المتطورة على الدوام؛ ولا تُعدّ سياسة أمور الطفل وعقليته وفهمه عيباً ولا أمارة جهل، بل أمارة رقي وعلم، وكذا سنّ قوانين حسب درجة تطور الإنسانية في مراحل تاريخها؛ إذ لا يُنكر تغيّر الأحكام بتغير الأزمان.

٤- ما ورد في السؤال قد يكون من الإسرائيليات؛ إذ ليس في المصادر المعتمدة ما يُثبت صحته؛ لكننا نضطر لتصديق هذا إذا ما وصلنا بسلسلة الخلق إلى آدم وحواء ﷺ كما ورد في القرآن؛ فإن سلّمنا بهذه المسألة كما هي دون تحرّ لأصلها ففي الإباحة المؤقتة

ثم النسخ دلالة على وجوب رعاية المصالح، أي إن الأحكام قد تتغير بتغير الأزمان والأوضاع.

٥- هذه المعاملة التي أُبِيحت مؤقتة تتميز بحال مخاطبيها، إذ إن عائلة آدم ﷺ ليست كغيرها ألبتة، لِمَ لا وأنوار الوحي الإلهي لم تنقطع عنها، فظل ضميرها يقظاً دائماً.

إن والدي هذه العائلة يتميزان بطراوة ونضارة الإنسان الأول على وجه الأرض، وكان قلبهما وجلاً على الدوام لعلمهما أن الزلة الصغيرة قد يكون عقابها شديداً، وكان قلبهما منكسراً لخروجهما من الجنة بسبب الزلة التي وقعت منهما... بيتٌ يحظى بأبوين مثل هذين يلزمه الورع والحيلة حتى في الأمور المباحة، وفي مثل هذه العائلة يعيش المرشحون للزواج دون أن ينظر بعضهم إلى بعض نظرة خبيثة، بل ينتظرون الأمر بالزواج انتظار الصائم للفطر؛ فقد كان الوحي ينزل على هذا البيت كالصاعقة لتقويم ما قد يقع من زيغ في القلوب، فلو زالت الحدود كلها فلا أحد يتعدى أسوار حمى يابى ضميره أن يتعداها.

أما البيوت اليوم فلا أثر فيها لشيء من هذه المعاني، أي يتعذر أن تظن بها الوقوف عند هذه الحدود، أو رعاية هذه الأمور، ويحتمل وقوع ما لا يليق في الأعمار الصغيرة؛ وهذا ما يجلب العار لأفراد الأسرة طول العمر؛ ويختل أمن هذه البيوت وتفقد الطمأنينة حتى إنها لتستحيل سكناً للعقارب وجحوراً للشعابين.

وهل يمكن أن يُظَلَّل الأمن والاطمئنان بيتاً فيه من يميل بشهوة إلى إحدى محارمه؟ إن بيتاً كهذا يغدو حلبة سباق ليفوز كل امرئ بمن يشتهي، بل إنه ليسابق أشقاءه في ذلك! وربما بلغ الأمر أن تُرتكب جرائم كما وقع لابني آدم ﷺ ثم فوضى واضطراب مستمر.

إذا فالزواج وعوامل يقظة الضمير ورقابته ضرورية؛ وبانعدام هذه العوامل واضمحلال بيئة التقوى تفتح الأبواب على مصراعيها لكل أنواع الشر وخبيث الفعل.

لا أودّ أن أتحدث عما شهدت أو سمعت لئلا أصوّر الباطل؛ فحوادث المحارم الناجمة عن خطأ وإهمال يسير تجعل المرء يخجل من كونه إنساناً، وإذا ما سمع عنها تتملكه قسّرية تسري في بدنه وشعورٌ بالوجل. وقبل الختام أود الإشارة إلى نقطة معينة، وهي أنّ عائلة تهتز جدران مسكنها بقول الله تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٣٦/٢) فتغمرها الخشية والإجلال، ليست كغيرها من عوائل اليوم، فمن الطبيعي أن أحكامها - وإن كانت مؤقتة - تختلف عن أحكام العوائل الأخرى، فضلاً عن أنه تعذر معرفة عدد وقوع ذلك النوع من الزواج، فلا ندري ربما وقع مرة أو مرتين.

٦- من حِكم الزواج بغير المحارم ضمان توزيع الثروة وتداولها لكي لا تكون دُوْلة بين أفراد العوائل، ولكن الناس يومئذ هم أولاد آدم عليه السلام فحسب، وكانت الدنيا كلها مسخرة لهم، فلا سبيل إلى القول بتراكم الثروة أو احتكارها وتمركزها؛ أما اليوم فقد اختلفت البنية الاجتماعية كثيراً بما جدّ من أواصر؛ لكن هذا ليس علة الأحكام المتعلقة بأمر الزواج، حتى لو وجدت طرائق أخرى لتوزيع الثروة فلن تختلف هذه الأحكام، والقول فيها للعلیم الحکیم عليه السلام.

سؤال آخر يمكن تبادره إلى بعض الأذهان: ألم يكن من الممكن أن يشرع الله شرعاً آخر غير الزواج بين الإخوة؟

سؤال كهذا فيه سوء أدب وجهلٌ بالله تعالى؛ وبعد أن خلق الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام ما أهون أن يخلق مثلهما، فهو تعالى خالق آلاف

بل مئات الآلاف من العوالم، ولكنه لم يفعل لأن حكمته قضت بذلك؛ ثم إنه تعالى لا شيء يدعو له ليخلق حسب موازيننا القاصرة المحدودة، بل إننا ما استطعنا أن ندرك ميزان الحسن والقبح في الكون إلا بعد إمراره من منشور أوامره ونواهيه؛ ولا يمكننا أن نفسّر الأشياء والحوادث تفسيراً صحيحاً إلا بعد اتخاذ أوامره ونواهيه ميزاناً، ولن نصيب فيما نضع من مبادئ إلا بعد أن نعدّ كل أمر من أوامره قانوناً.

ولما جعل الله تعالى آدم وحواء ﷺ أصلاً للسُّلالةِ الإنسانيّة، أيقنّا أنّ هذا هو الأحسن والأحكم، وكلُّ ما بين بني آدم من أواصر يرتبط بهذا الأصل.

كما أن الشجرة كلما اقتربت من جذرها وبذرتها تجلت لك وحدتها، كذلك الإنسان، ففي جذر مادّته أو جسده بذرة وحدة الروح، ولو تقدّمت مرحلة لظهر لك أنّ الذرية الإنسانية كلها مخبوءة في جذر "آدم" ﷺ؛ وتمثل الشجرة في هذه المرحلة الذكورة والأنوثة معاً؛ فهي التي تُلقح، وهي التي تُلقح؛ وعندما تباعدت هذه عن تلك، برز الاختلاف بين الذكورة والأنوثة، فتغير شكل التلقيح أيضاً.

إننا نشعر بعلاقة بيننا وبين البشرية جمعاء، ومرجع هذا هو وحدة آدم وحواء ﷺ وإنسانيتنا والمحبة التي وضعها الله تعالى في قلوبنا؛ أما نسخ أحكام كانت في شرع من قبلنا فأمره إلى حكمة التشريع الرباني الذي نسلم به، وأيضاً إلى بُعدنا عن الجذر الذي فيه سرّ ذاك التشريع، وكذلك الفروق الفردية الخاصة بالماهية الإنسانية التي تُمنح لكل امرئ في السلسلة البشرية ذكرًا كان أم أنثى.

فسبحان من هو في كل أمره حكيم.